The History of Jewish Settlement in the Old City

In this issue, Nazmi Ju'bah analyzes the historical presence of Jews in the Old City of Jerusalem in his article "The History of Jewish Settlement in the Old City" Since the article is in Arabic, the *Jerusalem Quarterly File* has provided a brief English summary, included below.

Through tracing the history of Jewish presence and settlement in the Old City of Jerusalem, Nazmi Ju'bah provides a condensed "lineage" of one group of people living amongst others, as well as an analysis of the colonialist/settler ideology at the root of the current tension in Jerusalem and beyond. Dr. Ju'bah's narrative enmeshes the Jewish presence in Jerusalem with the historical circumstances of the city and highlights the existence of Jews alongside other cultural groups - which may be the strongest counter to the extreme Zionist view

of exclusive control over Jerusalem or any of its areas. Furthermore, the study emphasizes the difficulty in tracing a history along racial lines and makes special note of the cultural production that has accompanied the colonialisation of Jerusalem.

By initially providing the reader with a broad historical summary, Dr. Ju'bah demonstrates the instrumental role played by Israel in producing one history at the expense of others. The most interesting point made by the article is the revelation that, overall, Jews made up a small and relatively weak minority in Jerusalem. However, by the turn of the 20th century and with the growth of Zionism, a flood of immigration saturated the Jewish Quarter and caused the build-up of severe tensions between the different religious and cultural groups.

The final section of the article deals with the colonial settler movement in the Old City of Jerusalem since 1967 and up to the post-Oslo period. The period immediately following the 1967 War saw the destruction of *harat al-magharibah* (the Moroccan Quarter), which was home to around 650 people, along with many historical buildings in the area. Another consequence of the Israeli occupation was the "emptying" of the Jewish Quarter of its Palestinian inhabitants, who were replaced by incoming Jewish immigrants.

The article also refers to the way history and archeology played a role in constructing and supporting the myth of a dominant Jewish presence in Jerusalem and undermining the city's vast, rich ties to its Arab population. Ju'bah addresses the institutional creation of "facts on the ground" in its practice of settlement construction, as well as its effects on the Palestinian population. Settlement activity was accompanied by governmental policies that orchestrated the transformation of the Old City through such methods as confiscating Palestinian property, maintaining a heavy military presence, and imposing discriminatory rules on the city's non-Jewish population.

This study takes a historical view of the study of the Jewish people and their settlement in the Old City of Jerusalem, but it differs from its ideologically infused Zionist counterparts. To summarize it best, Ju'bah refers to the "new" Jewish Quarter as "nothing more than a Jewish ghetto built for Jews by Jews." *(JQF)*

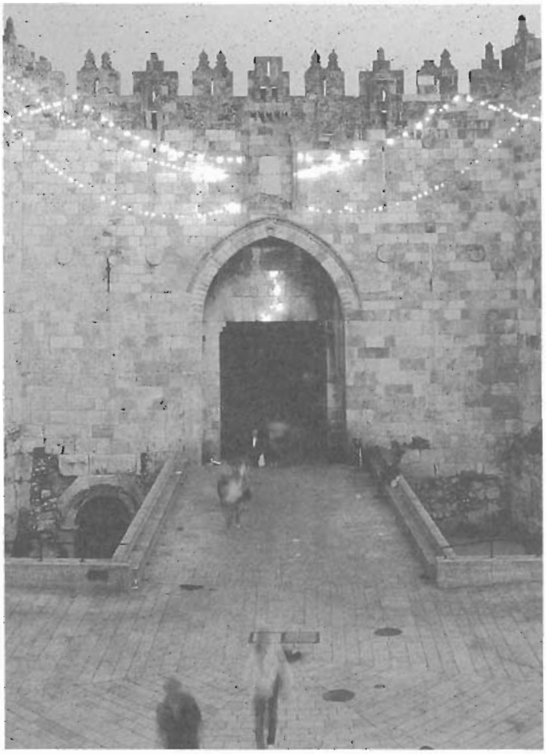

تاريخ الاستيطان اليهودي في البلـدة القديـمة*

نظمي الجعبة

مقـدمـة

ليس من المستغرب استمرار التطرق لهذا الموضوع الغاية في الأهمية، والذي يعكس نفسه على شكل المدينة الحاضر ويعرض هويتها للتحدي ومن الممكن ان يلعب دورا خطرا في تقرير مستقبل المدينـة.

ما زال اليهود في البلدة القديمة أقلية صغيرة محصورة (٢٣٠٠ من مجموع حوالي ٣٥ الف) وان البلدة القديمة ما زالت في مظهرها العام وطبيعة حياتها ونشاطها تنم عن هوية عربية واضحة المعالم. شكل سكان القدس العرب عام ١٩٦٧ أقل من ٢٠٪ من مجموع ما يسمى سكان "القدس الموحدة" فقد اصبحوا الآن، وبالرغم من سياسة التهجير والإحلال السكاني، أكثر بقليل من ثلث السكان قالبين السياسة الإسرائيلية اتجاه القدس رأسا على عقب، مما دفعهم الى إنشاء وزارات ولجان وزارية لشؤون القدس تهدف جميعها الى تغيير روح المدينة وشكلها وبالتأكيد واقعها الديمغرافي. ومن جهة أخرى فقد أصبحت القدس محاطة من جميع الجهات بطوق استيطاني شبه مكتمل، بحيث أننا لا نستطيع اليوم مغادرة المدينة بالاتجاهات الأربعة (ثلاث منها باتجاه الضفة الغربية)، دون المرور بإحدى المستوطنات.

لن يتسع المقام في هذه الورقة الى التطرق الى جميع النواحي التي أثرت على الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة، وعليه سيقتصر حديثنا على المراحل المختلفة

التي مرت فيها وسنحاول استخلاص أنماط هذا التمدد على أمل المساهمة في بلورة سياسة مضادة.

أولا: الوجود اليهودي في البلدة القديمة – نظرة تاريخية

لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال تتبع تاريخ مدينة القدس من منطلق عرقي، لأن حقل الآثار يعجز في كثير من الأحوال عن الإفصاح عن مثل هذه المعلومات. وقد فشلت كثير من الحفريات والمحاولات في تطويع هذا العلم لينسب حقب ما قبل التاريخ الى مجموعة عرقية معينة، اخذين بعين الاعتبار بأن نسب إنتاج ثقافي الى حضارة معينة، يأخذ شكلا أكثر جديا من المحاولات العرقية. ان هذا الأمر ينطبق الى أبعد حدود على فترات ما قبل التاريخ، في حين أن فترات ما بعد التاريخ والتي أمدتنا بمصادر مكتوبة، قد قربتنا أكثر من المفهوم العرقي. كما أننا يجب أن نحاذر، حتى في الفترات التاريخية، من المغالاة في إسقاط عرقي مطلق على منتج ثقافي معين. فمثلا قد نطلق مفهوم الحضارة العربية الإسلامية على كل من الفترتين الأموية والعباسية. ان مثل هذا الإسقاط هو لتحديد الهوية الحضارية، لكنه لا يعكس أبدا مفهوم الأعراق والأجناس التي كانت تعيش في ظل هذه الحضارة، ولا تقلل من إنتاجهم الحضاري وإسهاماتهم فيها. على الأقل هذا المفهوم لا يعني أيضا بأن العرب قد شكلوا الأغلبية السكانية، ولا يعني بأن المسلمين قد شكلوا الأغلبية، لكن الهيمنة السياسية والحضارية قد كانت للعرب المسلمين.

ومن هذا المنطلق، فان الحديث عن هيمنة يهودية في القدس أبان فترة معينة، لا يعني أبدا بأن اليهود قد شكلوا الغالبية السكانية. فعلى سبيل المثال، فان الصوت النازل من السماء على المحتشدين في مدينة القدس بحضور تلامذة السيد المسيح والرسل، قد تحدث بلغات مختلفة ومنها اللغة العربية، دلالة على التنوع الديموغرافي الذي شهدته القدس في تلك الحقبة (أعمال الرسل – الأول، الإصحاح ٢ :١١-١٢).

بتدمير هيكل هيرودوس عام ٧٠م ميلادية تعرض الوجود اليهودي في المدينة الى هزة عنيفة، لكن هذا الوجود قد قضي عليه كليا عام ١٣٢-١٣٥م، عندما أصدر الإمبراطور الروماني هدريان أمره الشهير بمنع اليهود من السكن في القدس وفي الخليل وفي المناطق الواقعة بينهما. وعلى ما يبدو فقد تم التقيد بهذا الأمر الى أقصى الحدود، لأن الآثار لم تكشف حتى اليوم أي موقع له علاقة باليهود او اليهودية منذ ذلك التاريخ وحتى الفتوحات العربية الإسلامية (سنة ٦٣٤-٦٣٦) في المناطق المذكورة، وأن أقرب موقع كان كنيسا يهوديا قد اكتشف في قرية السموع التي تبعد حوالي ١٠كم الى الجنوب من الخليل والذي عاصر الفترة الأموية.

ويبدو بأن هناك عودة يهودية محدودة وقصيرة الى مدينة القدس سنة ٦١٤م حيال سقوط المدينة بيد الفرس الساسانين، حيث تحالف يهود فلسطين ولبنان مع الغزاة الفرس انتقاما من البيزنطيين المسيحيين بسبب الملاحقة الطويلة. وتدلنا المصادر التاريخية بأن الفرس قد مكنوا اليهود من المدينة، حيث جرت حركة تدمير كبيرة لكنائس

* قدمت هذه الورقة في ندوة القدس في التاريخ:إتجاهات جديدة في تاريخ القدس و الذي نظمته موسسة الدراسات المقدسية في القدس بتاريخ ١٥،١٦ كانون الأول ٢٠٠٠ وستصدر قريبا في كتاب حول القدس في التاريخ عن المؤسسة يحرره سليم تماري وعصام نصار.

القدس البيزنطية، رافقها مذابح ضد المسيحيين المحليين، كان أبطالها اليهود بتواطئي ساساني واضح، ومحاولة تهويد قسرية للسكان. هذه العودة الى المدينة كانت شكلية قليلة التأثير، بالرغم من نجاحهم بالحصول على تكليف ساساني بحكم القدس. لقد تغيرت بلا شك السياسة الساسانية، من التحالف مع الأقلية اليهودية الى التحالف مع الغالبية السكانية المحلية. كما انتهى الأمر كليا بعودة القدس الى السيطرة البيزنطية على يد هرقل عام ٦٢٨-٦٢٩م ، لتجري بحق اليهود حركة اضطهاد جديدة، وطرد جديد من المدينة[2](جون ولكنسون، القدس تحت حكم روما وبيزنطة، في كتاب القدس في التاريخ، تحرير كامل العسلي، ١٩٩٢، ص ١١٥ وما بعدها).

وعلى الأغلب دخل القدس مع المسلمين بعض اليهود، بالرغم من تناقض وتضارب نسخ العهدة العمرية في هذا السياق، والتي تعتبر مصدرا أساسيا حول الوجود اليهودي في القدس بعيد الفتوحات الإسلامية للمدينة، ولكننا لا نعرف حجم ومكان استقرارهم، وأول المعلومات تتوارد عن وجود مجموعة يهودية صغيرة وفقيرة، تعود الى القرن التاسع الميلادي، وعلى الأغلب تشكلت من مجموعة من طائفة القرّاء "هقرائيتم" التي نشأت في القرن الثامن الميلادي بتأثير فقهي حنبلي إسلامي في بغداد. وكانت هذه الطائفة تؤمن بأن المصدر الوحيد لفهم الديانة اليهودية هو التوراة، ولم تعطي أي اهتمام للتلمود او المشناة. وبهذا تتشابه بالمذاهب الإسلامية التي رفضت مفهوم القياس والحجج العقلية والاجتهاد في التشريع. ومن المرجح وجود طوائف يهودية أخرى في القدس مثل الربانيون طبعا الى جانب السامريون. كما يمكن الافتراض بأن علاقة من التنافس وتتضاد قد سادت هذه الطوائف، لكن بسيطرة واضحة من جانب طائفة القرّاء التي كانت أكبر عددا في القدس، والتي ارتبطت بالسلطة العباسية بعلاقات ودّ، خاصة وأن أصول جلهم عراقية وإيرانية، كما كانت تعينها في مواجهة اليهودية الربانية (التلمودية). لقد دفع هذا الصراع اليهودي الى قيام طائفة الربانيين في القرن العاشر الميلادي الى نقل المدرسة التلمودية العليا من الرملة الى القدس لتعزيز تواجدهم في المدينة في مواجهةالقـــرّاء. وعلى ما يبدو بأن القرن الحادي عشر قد شهد اختفاء كاملا لوجود فرقة السامريون من القدس، مركزين بذلك على نابلس كموقع لقدس الأقداس. بالإضافة الى ذلك فانه من المعتقد بأن أعداد اليهود الربانيين قد تناقص في القدس في هذه الفترة الى حد التلاشي، مقتصرا على القرّاء، مما دفعهم الى إعادة مدرسة التلمود العليا الى الرملة ومنها الى عكا ثم الى صور، ومع الاحتلال الصليبي لفلسطين تم نقلها الى دمشق حيث استقرت هناك الى قرون عديدة. هذه الصورة تشكل انعكاسا لعلاقة اليهود بالقدس خلال هذه الفترة بالرغم من الحرية النسبية

جون ولكنسون، "القدس تحت حكم روما و بيزنطة" في كتاب القدس في التاريخ تحرير كامل جميل العسلي

٢

التي تمتع بها اليهود بالسكن في المدينة، الا أن استمرار إقدامهم على السكن في المدن الكبيرة وخاصة العواصم مثل بغداد ودمشق والرملة، او بالمدن التجارية الهامة مثل عكا وصور وصيدا، عازفين عن السكن في القدس. فقبل الغزوة الإفرنجية للقدس عام ١٠٩٩ كان عدد اليهود قليلا بحيث مجموع ما فرض عليهم من ضرائب (جزية وضريبة رأس وضريبة حجاج وضرائب أخرى) كان ١٠٠ دينار. ان هذا المبلغ الضئيل يعبر عن عدد قليل جدا من يهود القدس، كما يعبر عن فقر هذه الطائفة التي كانت عاجزة عن دفع هذا المبلغ مستجدية اليهود في كافة الأصقاع مساعدتها في دفعه. وبالتالي يمكن الافتراض بأن طائفة اليهود التي كان عددها ٣٠٠-٤٠٠ نسمة كانت تعيش على صدقات الحجاج اليهود القادمين من القاهرة او من الأندلس خلال الفترة الفاطمية. وان أمكن لنا تحديد مكان سكناهم فهو، كما تدلنا وثائق جنيزة القاهرة المعزية في حارة باب حطة (الى شمال الحرم الشريف). لقد انتهى هذا الوجود الرمزي عبر الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ حيث تعرضوا الى المذابح الإفرنجية كما تعرض لها إخوانهم المسلمين لها. ان المصادر لا تقدم لنا معلومات وافية حول الكنيس اليهودي في القدس في تلك الفترة، حيث أن الرحالة الذين وصفوا القدس في تلك الفترة،من مسلمين ومسيحيين ويهود، لم يشيروا اليه، وهناك إشارة في المصادر الصليبية تتحدث عن ذبح اليهود في كنيسهم الذي تجمعوا به بعد اقتحام الفرنجة لأسوار المدينة، وهذا يقودنا الى الاعتقاد بأنه كنيسا صغيرا، ليس به أية مميزات معمارية تلفت نظر حتى الرحالة اليهود. وان كانت مصادر وثائق جنيزة القاهرة تفتح المجال لأعداد أكبر لليهود في القدس، فان هذا الأمر ينطبق على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي وليس على نهايته[1] (كذلك راجع: شلومو غواتين "القدس في الفترة العربية ٦٣٨-١٠٩٩" في كتاب دراسات في تاريخ المدينة، تحرير أمنون كوهين، القدس، ١٩٩٠، ص ١١-٣٤؛ محسن يوسف، ديمغرافية القدس في نهاية القرن الحادي عشر مع رؤية للواقع الحالي، في كتاب: كامل العسلي، العلامة المقدسي وقضية القدس، القدس ١٩٩٦، ص٩-٥٤؛ نظمي الجعبة، ديمغرافية القدس في نهاية القرن الحادي عشر، في نفس السابق ص ٥٥-٦٦).

لقد انتهى الوجود اليهودي في القدس الى جانب انتهاء الوجود العربي الإسلامي، بالإضافة الى تحديد الوجود المسيحي الشرقي الأرثوذكسي، وجرت عملية إحلال ديموغرافي لاتيني غربي في

[1] أنظر العديد من الدراسات حول الموضوع ومنها:
Encyclopedia Judaicia, Vol. 9 (p.1411); Mann, Jacob. *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs*. New York: Gershon Cohen,1970. (pp. 135-42); Stilman, Norman. *The Jews of the Arab Lands*. Philadelphia: 1979. (pp154-155).

القدس. ويمكن الانتباه الى وجود ذكر لبعض اليهود، كما هو الحال بالنسبة للمسلمين، ممن دخل المدينة أثناء الفترة الصليبية، فالأمر لا يتعدى الحصول على إذن بالزيارة، فيحين نرى بأن بعض المسلمين، كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين الشرقيين، قد احضر الى المدينة لعدم توفر العمالة الإفرنجية الكافية لتوفير الخدمات، خاصة للأرستقراطية الإفرنجية الحاكمة [2]

وبعودة السلطة الإسلامية الى القدس بصلاح الدين عام ١١٩٩م، لم نجد ما يثبت وجود عودة يهودية جماعية الى القدس. وعلى الأغلب اقتصر الأمر على عدة عائلات يهودية التي عادت الى المدينة بعودة المسلمين اليها (حول ذلك أنظر: يوسف درووري "القدس في عصر المماليك" في كتاب القدس، تحرير أمنون كوهين، ١٩٩٠، ص ١١٥-١١٨).

يبدأ الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة في نفس المكان المعروف بـ "حارة اليهود" خلال الفترة المملوكية، وعلى الأغلب نتيجة سوء الأوضاع العامة في الأندلس من جهة، وللتطور الحاصل نتيجة الحركة التنموية الشاملة التي خلقها الوجود المملوكي في القدس. لكن هذا الاستيطان قد بقي محدودا جدا ومحصورا في منطقة ضيقة بين حارة الشرف وحارة الأرمن وليس لها علاقة بحدود حارة اليهود المتعارف عليها اليوم. ولم نحصل على إشارات لا من كتب الضرائب ولا من الرحالة الأجانب الذين تزايد عددهم بشكل كبير خلال هذه الفترة، ولا حتى من الرحالة اليهود الذين زاروا المدينة بشكل متواصل. وبالتالي يمكن الافتراض، وبشيء من الدقة بأن التركيبة السكانية لقدس لم تتغير على امتداد الفترة المملوكية الممتدة من ١٢٥٠م وحتى عام ١٥١٦م، حين سقطت القدس بيد الدولة العثمانية.

لقد أصبحت الدولة العثمانية تحتوي على أكبر تجمعات اليهود في العالم، واعتبرت الجالية اليهودية في مدينة تسلونيك أكبر جالية يهودية مجتمعة في مدينة واحدة. وتمتع اليهود بحريات كبيرة نسبيا، من ضمنها بالتأكيد حرية التنقل والسكن كرعايا عثمانيين، كما تزايدت هذه الحقوق بنشوء وتطور نظام "الملة" الذي وفر إدارة ثقافية ودينية مستقلة للطوائف المختلفة ومن ضمنها اليهود. ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة، خاصة الليبرالية العثمانية اتجاه ليس اليهود العثمانيين فحسب بل اتجاه يهود العالم، حدثت حركة هجرة الى بيت المقدس (قدس شريف بموجب التسمية العثمانية الرسمية) خاصة من فرنسا وإسبانيا والبرتغال وهنغاريا وألمانيا وإيطاليا. ومن خلال دفاتر الضرائب العثمانية، التي يمكن الارتكان النسبي اليها، يمكننا تصور عدد سكان القدس التي كانت فقط داخل الأسوار، ولنأخذ مثلا عام ١٥٦٣م لأن السجلات كاملة في هذه السنة حيث وصل عدد السكان الى حوالي ١٢٧٠٠ نسمة منهم ١٦٠٠ مسيحيين، ١٢٠٠ يهود والباقي ٩٩٠٠ من المسلمين. [3]

وبهذا أصبحت نسبة اليهود الى باقي السكان أقل من ١٠٪. وخلال القرنين التاليين تصلنا أرقام متضاربة حول سكان المدينة يجعلنا في وضع لا يسمح لنا بتصور الوضع على حقيقته وجميعها أرقام تقديرية. وفي القرن التاسع عشر يتم تأسيس أحياء جديدة خرج أسوار القدس العتيقة، ويجري خلالها اختلاف جوهري حول تحديد مفهوم المدينة وحدودها، وكذلك فان الأرقام التي وردتنا هي مجرد تقديرات خضعت للمصلحة الطائفية او الضريبية او القومية. لكن شهدت المدينة، خاصة في القرن التاسع عشر هجرة يهودية ومسيحية أوروبية منظمة وكثيفة، هادفة استعمار القدس بشكل خاص وفلسطين بشكل عام. صحيح بأن التغيير داخل البلدة القديمة لم يكن دراميا، لكنه أصبح أكثر خطورة خارج أسوار القدس.

ازدادت وتيرة الهجرة اليهودية الى البلدة في القرن التاسع عشر وتنامت بظهور الحركة الصهيونية. ويمكن اعتبار عام ١٨٦٠م عاما على غاية الأهمية في نمو التواجد اليهودي في البلدة القديمة من القدس. فلم تعد الحارة "التاريخية" الضيقة وشديدة الاكتظاظ تفي بأغراض القادمين الجدد، فازدادت حركة الانتقال الى باقي أحياء المدينة خاصة في المناطق المحيطة بحارة اليهود مثل حارة الشرف، طريق باب السلسلة، عقبة الخالدية، طريق الواد، عقبة السرايا، وذلك اما عن طريق الشراء او الاستئجار بعد رفع الحواجز القانونية العثمانية او عن طريق اليهود العثمانيين. ومن الجدير ملاحظته ايضا بأن التوسع اليهودي في حارة النصارى كان محدودا جدا وذلك كون النشاط الأوروبي والكنسي في هذه الحارة كان على أشده، مما جعل إمكانية الحصول على أماكن فارغة فيها شبه مستحيلا، كما كان هناك ميلا يهوديا عام بالسكن بين المسلمين. وبهذا توسعت حارة اليهود، لكنها لم تكن يهودية خالصة أبدا حيث أن القدس لم تعرف قبل عام ١٩٦٧ مفهوم الجيتو. فعلى سبيل المثال فقد تمكن اليهود (ائتلاف من مجموعة من الجمعيات) من شراء قطعة أرض واسعة (مساحتها ثلاثين دونما) في الزاوية الجنوبية الغربية لحارة اليهود، بهدف إقامة

---

[2] Prawer, Joshua. *Crusader Institutions*. Oxford: 1980. (pp.90-100); Stilman (p. 193); Mann (p.192).

[3] حول الإحصائيات أنظر
Cohen, Amnon and Lewis, Bernard, "Population and Revenue in the Towns of Palestine in the 16th Century," eds. W.D. Huetteroth and K. Abdulfattah. *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century*. Erlangen: 1977. (pp.36-37)

مباني سكنية وذلك تحت حماية قنصل النمسا في القدس، وقد تشكل أصحاب المشروع بالأساس من يهود نمساويين وألمان وهولنديين. لقد أنتج المشروع حوالي ١٠٠ وحدة سكنية حديثة (في حينه) وتكونت كل وحدة من غرفتين ومطبخ وأجرت لليهود بمبالغ رمزية. كما شهدت نفس الفترة نموا واضحا في المؤسسات العامة، خاصة الكنس والمدارس الدينية وبيوت الضيافة وحركة واسعة من الترميم: كنيس الخربا (للاشكناز) سنة ١٨٦٤، كنيس تيفرت إسرائيل (للاشكناز) سنة ١٨٧٦. كما بنى ورمم اليهود الشرقيين (الاسفراديم) أربعة كنس هي الياهو هنفي (رمم ١٨٣٥) كنيس يوحنان بن زكاي (رمم ١٨٣٩)، كنيس كيهيلات تسيون (من مبانيقرن التاسع عشر)، وكنيس استنبولي (رمم١٨٣٥). لقد بنيت جميع الكنس المذكورة أعلاه على الطراز العثماني المسمى أحيانا بالطراز البيزنطي المتأخر (أنظر يحيى الفرحان، قصة مدينة القدس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٩٠ وما بعدها؛ جمعية الدراسات العربية، القدس حقائق وأرقام، ص ٣٠ وما بعدها؛ سميث ماجواير، تهويد القدس، القدس ١٩٨١، ص ٥ وما بعدها).

خلال فترة الانتداب البريطاني تراجع الاستيطان اليهودي في البلدة القديمة بسبب نمو الأحياء الجديدة خارج الأسوار الموفرة للخدمات العصرية من جهة، ولازدياد حدة التوتر في العلاقة بين الفلسطينيين واليهود لوضوح البرنامج الصهيوني (سنوات ١٩٢١، ١٩٢٦، ١٩٢٩) وبهذا تركت البيوت المستأجرة، واما تلك التي يملكها اليهود فقد أجر بعضها للعرب او بيع لهم او ترك بعضها الآخر فارغا. وكان الوضع من ناحية سكانية عام ١٩٤٨ داخل البلدة القديمة كما يلي: مجموع السكان ٣٦٠٠٠ نسمة منهم ٣٣٦٠٠ من الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) و ٢٤٠٠ من اليهود. ومن المثير بأن الوضع اليوم (عام ٢٠٠١) قد عاد تقريبا الى نفس التوازن (ماجواير، ص ١٤).

كنتيجة لحرب عام ١٩٤٨ وما تبعها من تقسيم القدس عبر سقوط الأحياء الغربية من المدينة تحت الاحتلال الإسرائيلي وتفريغ هذا الجزء من السكان الفلسطينيين، فقد فرغ شرق المدينة من السكان اليهود وأصبحت حارة اليهود فارغة كليا من السكان، وبسبب تدفق اللاجئين الفلسطينيين من سكان غرب المدينة الى البلدة القديمة، فقد جرى إسكان بعضهم في حارة اليهود الخالية من السكان، وخضعت كل الأملاك اليهودية في هذا الجزء من المدينة لسلطة حارس أملاك الغائبين الأردنية التي قامت بإدارتها والحفاظ عليها دون تغييرات تذكر. بقي أن نقول في هذا السياق بأن حارة اليهود كانت في أوضاع سيئة جدا نتيجة الحرب فقد دمرت غالبية البنايات فيها، ليس فقط الملكيات اليهودية بل أيضا العربية.

ثانيا: الاحتلال الإسرائيلي للبلدة القديمة في حرب حزيران عام ١٩٦٧.

المرحلة الأولى:

يبدو بأن التخطيط للسيطرة على البلدة القديمة قد سبق احتلالها بفترة طويلة، كما شمل هذا التخطيط آليات السيطرة على المناطق المحيطة بها واستيطانها. وفي سبيل تتبع هذه السيطرة وأشكالها، فقد قمنا هنا بتقسيمها الى مراحل ليسهل تتبعها:

١. حارة المغاربة: حال الانتهاء من السيطرة على البلدة القديمة دخلت إسرائيل بنقاش بين جنرالات الحرب ورجال الدين (الحاخامين) حول مستقبل أجزاء معينة من المدينة، وقد انتهى النقاش بقرار توسيع الساحة المحاذية لحائط البراق بعد أن كانت مساحتها حوالي ١٢٠م مربعا، وقد تجاهلت القيادة الإسرائيلية مطلب الحاخامين وخاصة الحاخام غورين (حاخام الجيش الإسرائيلي عام ١٩٦٧) بهدم قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك لإنشاء الهيكل الثالث. وبهذا أرسلت الجرافات مباشرة الى حارة المغاربة، ولم تمضي ثلاثة أيام على سقوط القدس الا وقد انتهى مسح وجود هذه الحارة التاريخية التي أنشأت في الفترة الأيوبية بعد ان أعطي سكانها مهلة ثلاث ساعات لإخلائها. بلغ عدد العائلات التي شردت من الحارة ١٣٥ عائلة تعد حوالي ٦٥٠ نسمة، وكان بين الضحايا عددا من المباني التاريخية منها مسجد البراق والمدرسة الأفضلية، بالإضافة الى تراث مغربي أندلسي رافقنا في المدينة مدة ٩٠٠ سنة.

٢. إخلاء حارة اليهود: امتلك اليهود ما نسبته ١٥٪ تقريبا من مساحة حارة اليهود أي ١٠٥ بنايات من مجموع ٧٠٠ بناية، وشكلت الملكيات اليهودية عام ١٩٤٨ ما نسبته ٠,٦٪ من مجموع مساحة البلدة القديمة. في حين بلغت الملكيات اليهودية حتى عام ١٩٤٨ما نسبته ١٣٪ من مجموع مساحة القدس بشرقها وغربها (خارج الأسوار).

في أبريل عام ١٩٦٨ قامت إسرائيل بمصادرة ٣٠ هكتارا لإعادة اعمار حارة اليهود، وكان عدد الفلسطينيين القاطنين في ذلك الجزء من المدينة (الذي تجاوز بمساحته مفهوم حارة اليهود ما قبل ١٩٤٨) حوالي ٥٥٠ نسمة، غالبيتهم من الذين سكنوا الحارة قبل عام ١٩٤٨. وقد تمت المصادرة بناء على القانون الانتدابي (١٩٤٣) وذلك بهدف المنفعة العامة، كذلك استخدم قانون أملاك الغائبين، وبهذا تمت مصادرة كل الأملاك سواء عربية ام يهودية، تلك التي سكنت من قبل اليهود او العرب مستأجرين كانوا ام ملاكا، سواء كانوا مقيمين ام غائبين، لاجئين كانوا ام دائمين. وقد اقترحت إسرائيل تعويضا قدره ٥٠٠-٣٠٠٠ دولار للملكية الواحدة. ومع حلول عام ١٩٧٥ تم إسكان ما مجموعه حوالي ١٥٠٠ نسمة يهودية تقريبا فيما أصبح يسمى بـ"حارة اليهود".

تبلغ مساحة حارة اليهود اليوم ٤ أضعاف حجمها عام ١٩٤٨

(حوالي ١٧٪ من مجموع البلدة القديمة). لقد تمخضت هذه المرحلة عن وجود حارة عنصرية تخلو من غير اليهود، وذلك بموجب قرار محكمة العدل العليا الإسرائيلية الذي يمنع سكنى غير اليهود في حارة اليهود، وذلك طبعا بهدف "التعايش المشترك والسلام الداخلي في المدينة". لقد بدأت أعمال الترميم واعادة البناء وتأهيل الحارة مباشرة بعد ترحيل أهلها، وتم تبليط الشوارع والساحات العامة ببلاط حجري بعد إرساء بنية تحتية عصرية شاملة، ثم قامت شركة تطوير حارة اليهود بتدعيم وترميم المباني القائمة، خاصة تلك التي تعود في ملكيتها لليهود وإزالة المباني الأخرى، خاصة تلك التي تعود في ملكيتها للعرب، وتصميم مباني حديثة بديلة لتلك التي أزيلت، وبناء ساحات عامة جديدة، وبناء مواقف للسيارات خصيصا لسكان حارة اليهود، وانتهاء بتصميم حديث لشارات الشوارع والفوانيس. كما شمل المشروع على فتح فرع للبريد، وفروع للبنوك، ومركز للشرطة، وحوانيت استهلاكية، مكتبات عامة، متاحف، محلات سياحية، قاعات للاحتفالات والاجتماعات، مؤسسات دينية (مدارس وكنس لمختلف الطوائف). لقد كان الهدف إسكان ٦٥٠ عائلة في ٦٥٠ وحدة سكنية على مساحة تقارب ٣٠٠ دونم. كما شملت الخطة تأمين ممرات مستقلة لسكان الحارة تربطها بالقدس الغربية دون المرور بالأحياء العربية مستخدمين لذلك بوابات الخليل والنبي داود والمغاربة، وتأمين المواصلات العمومية لهذا الغرض. كما شملت الخطة على تطوير عوامل الجذب السياحي لهذا الحي عبر إنشاء المتاحف: متحف الهيكل، متحف تاريخ الوجود اليهودي في البلدة القديمة، متحف تاريخ القدس في القلعة، عشرات الحفريات الأثرية التي ربطت بحق او بغير حق بالتاريخ اليهودي، وتم الكشف عن الشارع الروماني المعمد (كاردو)، كنيسة النيا البيزنطية، الكنيسة الالمانية الصليبية...الخ. ووضعت اللافتات على كل مبنى وشارع ولافتات توضح المعالم التاريخية الهامة في الحارة، كذلك طورت المسارات السياحية المؤشر عليها والتي تقود جميعا الى حائط المبكى. بالرغم من هذا الإنجاز الهام والذي استهلك عشرات الملايين من الدولارات الا أن الزائر لهذه الحارة يلاحظ عدم انسجامها معماريا مع باقي حارات المدينة بل انها مشوهة كليا للتراث المعماري للبلدة القديمة ولا تنبئ عن شيء معماري يهودي، وانها قد تحولت الى متحف للزائرين سواء الإسرائيلي او الأجانب المقيد مسارهم بفعل الإدلاء السياحيين الإسرائيليين، كما أنها لم تخلق حياة طبيعية في الحارة، وان الحارة لا تتعدى عنصرا دعاويا ليس الا، وان الحارة عبارة عن جيتو يهودي خلق بأيدي يهودية. وأن القدس القديمة بالرغم من حارة اليهود اللامعة قد بقيت عربية، وأن الأحياء الأخرى قد حافظت على حيويتها وجذبها العربي الشرقي الرائع بالرغم من كل عوامل الطرد.

٣. الحفريات الإسرائيلية: كما تعرفون فقد لعب "علم" الآثار دورا هاما في تشكيل أسطورة الوجود اليهودي في فلسطين وارتكزت اليه كثير من المقولات والمصوغات الصهيونية، لن يتسع لنا المجال هنا الى التعمق في هذا الأمر، وبالتالي تم استخدامه على محورين، الأول تهميش الوجود الفلسطيني عبر زيادة المساحات المعلنة كمحميات تاريخية، واستعمالها كنقاط جذب سياحي، والمحور الثاني إظهار الوجود اليهودي بشكل مميز لمنافسة مساجد وكنائس العرب في المدينة التي تطغى على الصورة الشمولية لها. وكانت أكبر المساحات التي تم استغلالها لهذا الغرض تلك التي تقع على الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف، والتي حظيت بنشاط مميز بحثا عن ما يمكن ان يكتشف من بقايا الهيكل. لقد تكللت تلك الحفريات باكتشافات نادرة وعلى درجة عالية من الأهمية حول الوجود الأموي المدني (ليس الديني) في القدس منتجة بذلك أربع قصور أموية، وعشرات الأبنية الرومانية والبيزنطية والتي تم تطويعها بشكل إجباري للتحدث عن أي شئ ذات علاقة باليهود. لقد امتدت أعمال الحفر الى كل زاوية ممكنة في المدينة، ولم تنتج عن شئ ذا بال بالنسبة للتاريخ اليهودي. كما بدأت ومنذ نهاية الستينات حركة نشطة من الحفر دون مستوى الأرض بين أساسات المباني التاريخية منتجة بذلك ما يسمى بالنفق والذي افتتح على يد نتنياهو (رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق) في أيلول ١٩٩٦. ويمكن فهم هذا العمل ليس من باب البحث عن خفايا القدس الكثيرة والتي نعرف جزء منها منذ قرن ونصف، بل من باب السيطرة على المدينة من تحت الأرض لسهولة ذلك، وتهديد منطقة الحرم الشريف.

٤. مصادرة المدرسة التنكزية: يعتبر هذا المبنى من الروائع المعمارية المملوكية في القدس، تأسس على يد والي الشام المملوكي تنكز الناصري عام ١٣٣٦م ضمن مشروع معماري متكامل ضم مدرسة ودارا للقرآن وأخرى للحديث، ورباطا للصوفية ودارا للنساء، وأوقف على هذا مجمعا معماريا آخر تشكل من سوق القطانين وحمامي العين والشفاء وخان تنكز. لعبت هذه المدرسة دورا حيويا جدا في تاريخ القدس الثقافي، كما استقبلت غالبية من زار القدس من سلاطين المماليك وعمالهم وعلماء الفترة المملوكية ممن أم القدس، كما كانت مقرا للمجلس الإسلامي الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسيني، ثم أصبحت محكمة شرعية (وبها تعرف اليوم). لقد تم مصادرة هذا المبنى الواقع على مدخل باب السلسلة والمشرف على الجدار الغربي لمنطقة الحرم الشريف وتم تحويله الى معسكر للجيش والذي من فوق سطحه تم إطلاق النار عام ١٩٩٦ على المصلين والمتظاهرين ضد فتح النفق، مرتكبين بذلك المذبحة الشهيرة.

٥. السيطرة على مجموعة من المواقع في البلدة القديمة بحجج الدوافع الأمنية، مناطق قتل فيها إسرائيليين، أخرى مطلة على حائط المبكى، أخرى أملاك غائبين...الخ

المرحلة الثانيـة:

بدأت هذه المرحلة سنة ١٩٧٧ بصعود الليكود الى السلطة، وطبعا مرة أخرى بـ "حق اليهود بالاستيطان أينما أرادوا من القدس" لـ "تمكين التعايش السلمي بين العرب واليهود" لـ "الحفاظ على الفسيفسائية الحضارية للمدينة" كما امتدت هذه المقولات الى كل أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، بدعم حكومي رسمي ومعلن. ونعيد الذاكرة هنا بأن حركة غوش أمونيم الاستيطانية قد تأسست تحت نفس الشعار. لقد خصصت الحكومة الإسرائيلية في نهاية السبعينات ميزانيات حكومية معلنة للسيطرة على العقارات العربية في المدينة، ووضعت الأولويات الاستيطانية في قلب أحياء الحارات الإسلامية، وعلى درجة أقل في حارة النصارى، وقد قدم شارون وزير الحرب الإسرائيلي، سيئ السمعة والصيت، نموذجا حيويا للاستيطان في البلدة القديمة عبر سيطرته على مبنى يقع بالقرب من باب العمود على المحور الرئيسي الذي يقود من ذلك الباب الى الحرم القدسي الشريف، وتوالت السيطرة على العقارات على امتداد الجدار الغربي للحرم الشريف في المنطقة التي تمر من فوق النفق والتي تؤدي الى ساحة حائط المبكى. وهنا يجب التنبه بأن الجدار الجنوبي للحرم الشريف والمنطقة الخارجية تقع كليا تحت السيطرة الإسرائيلية، كما أن ثلث الجدار الغربي يقع ضمن ساحة حائط المبكى والمدرسة التنكزية، ومن ثم ما يسمى بحائط المبكى الصغير الذي تجري محاولات دائمة للسيطرة عليه، وتجري المحاولات الحثيثة للسيطرة على باقي الجدار عبر توصيل النقاط الاستيطانية بعضها ببعض، وان لم تنجح فعبر تحت الأرض او أسطح البيوت.

لقد بلغ مجموع العقارات التي سيطر عليها المستوطنون خارج ما يسمى حارة اليهود ٧٨ عقارا، موزعة على الأحياء المختلفة، مركزة في طريق باب السلسلة، عقبة الخالدية، عقبة السرايا، حي القرمي، باب الساهرة. هذا بالإضافة الى مباني متناثرة في حارة النصارى (مثل نزل سان جون) وحارة السعدية وباب حطة وبرج اللقلق.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد أوسلو ١٩٩٣

يمكن تلخيص هذه المرحلة بتنشيط الحركة الاستيطانية لوتيرة عملها لاستباق مفاوضات الوضع النهائي وخلق أمر واقع لا يمكن عكسه، كما تمثلت هذه المرحلة بحملة مكثفة في المنطقة المحيطة بأسوار البلدة القديمة خاصة في سلوان والشيخ جراح ورأس العمود. كما قامت السلطات الإسرائيلية بشن حملة مركزة ضد مؤسسات المدينة، أجبرت بعضها على ترك المدينة باتجاه مناطق السلطة الفلسطينية، وتطبيق سياسات إغلاق القدس (منذ عام ١٩٩٣) وعزلها عن باقي أرجاء الضفة الغربية، كذلك الضغط على سكان المدينة في سبيل تركها. وبالرغم من كثافة الهجمة في هذه المرحلة الا أن نتائجها غير باهرة بالنسبة للإسرائيليين، فقد أصبحت عملية السيطرة على أي عقار شبه مستحيلة، وذلك كون المؤسسات الفاعلة في مقاومة تسريب العقارات قد أصبحت على درجة أعلى من الوعي والقدرة. وبالتالي هي أقل المراحل ـ على الأقل داخل البلدة القديمة ـ إنتاجية بالنسبة للإسرائيليين)حول الأرقام والمساحات الواردة في هذا الجزء، أنظر مسح مدينة القدس، دراسة غير منشورة، رواق ـ مركز المعمار الشعبي، البيرة، ٢٠٠٠).

رابعا: المجموعات والحركات الاستيطانية

هناك عددا من الحركات الاستيطانية الفاعلة في البلدة القديمة، وهي بالتأكيد مدعومة من قبل الحكومة الإسرائيلية بأذرعها المختلفة، كما تتلقى دعما ماديا ولوجستيا ومعلوماتيا من بلدية القدس سواء على عهد تيدي كوليك او أهود المرت. ان أكبر حركة استيطان في البلدة القديمة هي الحكومة الإسرائيلية التي صادرت الكم الأكبر من العقارات وهي التي بادرت الى إزالة حارة المغاربة وهي التي صادرت المدرسة التنكزية، وهي التي أوحت الى محكمة العدل العليا بقراراتها العنصرية وهي التي ترفض إخلاء المنازل من المستوطنين في حالة احتلالها. بالإضافة لها هناك الحركات التالية:

١. عطيرت ليوشنا: تأسست هذه الحركة عام ١٩٧٩ عقب اجتماع بين آباء الحركة (يهود أمريكان بالأساس) مع المحامي شبتاي زخاريا (أحد أهم رموز الاستيطان في القدس والذي نشر كتابا حول كل العقارات التي ارتبطت باليهود بطريقة او بأخرى، والذي يستخدم كدليل استيطاني للسيطرة على العقارات)، وهي جمعية لا ربحية تهدف الى إحياء تراث الهيكل وتجهيز رجال الدين للهيكل الثالث وعودة المسيح المنتظر. كما أن هدفها الثاني هو "تحرير" القدس من "الغرباء" وذلك لتوطين الكهنة فيها، لان الأجواء العامة (الديموغرافية) لا تسمح بعودة المسيح. تتلقى هذه الحركة دعما حكوميا رسميا بالإضافة الى دعم مؤسسة الحاخام الرئيسي الاشكنازي، وتقوم بجمع التبرعات من يهود أمريكيا وهي مسجلة رسميا في الولايات المتحدة كجمعية لا ربحية تخصم التبرعات التي تتلقاها من الضرائب.

٢. مجموعة عطيرت كوهنيم: تأسست سنة ١٩٨٤ (مجموعة انشقت عن الأولى) وتؤمن بضرورة طرد كل العرب (تطهير المدينة) لتحضير الظروف الكاملة لبناء الهيكل الثالث، وعليه تقوم بتحضير أدق التفاصيل المتعلقة بالهيكل، وآخر إنجازاتها تحضير شمعدان الهيكل (المنوراه) من الذهب الخالص بكلفة تجاوزت ثلاثة ملايين دولارا، كذلك جهزت الأدوات المقدسة التي ستستعمل في الهيكل. وهي على علاقة وثيقة بحركة أمناء الهيكل التي تحاول كل عام وضع حجر الأساس للهيكل الثالث في الذكرى السنوية لدمار الهيكل الثاني والتي توافق التاسع من آب (حسب التقويم العبري).

٣. العاد: تأسست في مطلع التسعينات، تهدف الى طرد السكان العرب من منطقة سلوان والشيخ جراح، لعمل تواصل استيطاني

بين مستوطني البلدة القديمة وخاصة حارة اليهود وخارج الأسوار.

٤. يشيفات بركات أفرهام: مجموعة صغيرة تتكون بالأساس من مجموعة من المجرمين السابقين الذين أعلنوا توبتهم وأصبحوا متشددين دينيا دون نفي تعصبهم القومي الصهيوني، لديهم توجهات صوفية، وتحتل بعض مباني البلدة القديمة ويشكلون إزعاجا هائلا للسكان لان جزء هاما من طقوسهم الدينية تتم بمرافقة موسيقى صاخبة تستمر حتى الفجر (لمزيد من العلومات أنظر: ماجواير، تهويد القدس).

من الواضح بأن هناك تنسيقا وتوزيعا للأدوار بين الحركات المختلفة، وخاصة توزيع أماكن العمل والتركيز.

خامسا: أسلوب السيطرة على العقارات

تجري عملية السيطرة على العقارات بأشكال متعددة، ويمكن الافتراض بوجود أرشيف مركزي لتجميع وتركيز المعلومات حول كل عقار في القدس القديمة، يتم من خلاله توزيع المعلومات على الجهات المعنية، ويمكن تلخيص الطرق بما يلي:

١. ملكية يهودية
٢. استعمال يهودي سابق
٣. أملاك غائبين
٤. أملاك عامة وحكومية
٥. مواقع أثرية وتاريخية
٦. بهدف المنفعة العامة
٧. لأغراض أمنية وسلامة الجمهور
٨. التورط بقروض بنكية ومن ثم الحجز على العقار
٩. التورط بالمخدرات ومن ثم الابتزاز والبيع
١٠. عدم وجود ورثة
١١. الاغراءات المالية
١٢. عبر السماسرة

من الواضح بأن النجاحات المحدودة التي توصلت اليها الحركة الاستيطانية اليهودية في البلدة القديمة قد تمت في الأوقات التي شهدت غيابا فلسطينيا منظما وواعيا عن البلدة القديمة، وفي ظل غياب البرنامج الوطني. ويمكن اعتبار أن المرحلة الأولى في مقاومة الاستيطان في البلدة القديمة بشكل منهجي كانت في ظل الانتفاضة، وهذا ليس تقليلا من أهمية بعض النشاطات التي قامت بها دائرة الأوقاف الإسلامية.

الآن وقد أصبح الوضع أكثر إيجابية، لكن الخطر لم يزول لأن البلدة القديمة ستتعرض في السنوات القادمة الى امتحانات عسيرة يجب الإعداد لها بدقة، ويمكنني هنا التشديد على ضرورة وضع خطة وطنية لمقاومة الاستيطان داخل أسوار القدس، هذه الخطة تعتمد ليس فقط على عنصر المقاومة، بل على عنصر التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، وتحسين شروط السكن، وترميم المباني وتطويرها.